المقتطف

الجزء الثاني عشر من السنة التاسعة

ايلول. (ستمبر) ١٨٨٥

اصل مصر والمصريين

منذ اكثر من ثلاثة وعشرين قرنًا اضطرّت تقلبات الزمان رجلاً من علماء اليونان ان يهجر بلاده ويضرب في ارض الله فاتى بلاد الفراعنة وطاف فيها وتفقّد احوال اهاليها وباحث كهنتها ونقل عنهم اخبارًا كثيرة اودعها في الكتاب الثاني من تاريخه المشهور. هذا هو هيرودوتس الملقّب بابي التاريخ صاحب الكتابات التي ارتاب منها علماء هذا الزمان وتشعّبت فيها مذاهبهم حتى قام لبسيوس وبرّتش ومريت وبرُغش وكشفوا من الآثار المصرية ما ختم على صحة كثير منها. ويستنتج ما قاله هذا الرحّالة الشهير والناقد البصير في وصف وادي النيل واصل اهاليه اربع قضايا: الاولى ان مصر السفلى من فوق القاهرة الى البحر المتوسط كانت في سالف الزمن خليجًا من البحر. والثانية ان النيل ردم هذا الخليج فصيّرهُ برًّا. والثالثة ان ذلك حدث في عشرة آلاف او عشرين الف سنة. والرابعة ان المصريين القدماء سكنوا مصر العليا قبل ان تكوّنت مصر السفلى ثم عمّروا ما ردمهُ النيل من مصر السفلى

ودامت هذه القضايا عشرين قرنًا ولم يقم من الناس من يثبتها او ينقضها بل لم يقم منهم من بلغ مبلغ هيرودوتس في سعة المدارك وقوة الاستدلال. ثم قام في القرون الثلاثة الاخيرة اناس كثيرون وسّعوا نطاق المعارف واستجلوا اسرار الطبيعة وازاحوا الستار عن آثار المتقدمين فصرنا بحيث يمكن الجزم في كثير من المسائل الطبيعية التي حاول ابو التاريخ حلها وتعلّل لها العلل

في زمانهِ . وها نحن نبحث في القضايا المتقدمة مستنيرين بنور المعارف الحديثة ولا حرج ان سكان وادي النيل يودون معرفة اصل بلادهم وكيف تكوَّنت وسبب فيضان نهرها عند ما تجف الانهار في غيرها من البلدان الى غير ذلك مما تتشوَّف للمطالع معرفتهُ ولا تخفى عليهِ قيمتهُ الاَّ ان المقام ضيق ولذلك لا بد لنا من الايجاز فنقول

ان من يستقبل الاسكندرية لا يرى فيها الاَّ شاطئًا رمليًّا قاحلاً يرتدُّ عنهُ الطرف كليلاً فيتعثَّر بالكثبان والعرائج . ثم اذا خرج من الاسكندرية قاصدًا القاهرة مرَّ اولاً على بحيرات وسباخ تغالب النيل فغلبهُ تارةً ويغلبها اخرى . ثم لا يلبث طويلاً حتى يدخل في سهل فسيح الجناب يلاقي الافق من جهاتهِ الاربع وينبسط انبساط الماء ولا يرتفع الاَّ ثلاثة قراريط او اربعة في كل ميل من امتدادهِ جنوبًا . ثم تبدو سلسلة من الهضاب عن جانبهِ الغربي ثم أُخرى على جانبهِ الشرقي ولا تزال هاتان السلسلتان تقتربان حتى لا يبقى بينهما عند مدينة القاهرة الاَّ ستة اميال او سبعة . وهذا السهل الفسيح بين القاهرة والبحر المتوسِّط مثلث الشكل كالذال اليونانية ولذلك أُطلق عليهِ اسم الدلتا ولم يزَل يعرف بهِ الى يومنا هذا . وفوق القاهرة بقليل تنفرج السلسلتان قليلاً وتسيران بعد ذلك سيرًا متعرِّجًا متوازيًا حتى لا يزيد البعد بينهما عن خمسة عشر ميلاً او عشرين . والوادي الذي بينهما من اخصب سهول الدنيا والنيل ينساب فيهِ كأنهُ سيفٌ يُسَلُّ على بساطٍ اخضر ومساحة الاراضي الزراعية في هذا الوادي وفي الدلتا نحو ثلثمائة الف وسبعة آلاف ميل مربع نصفها فيهِ ونصفها في الدلتا وكانت اكثر من ذلك في ايام الفراعنة

والارض من القاهرة الى اطراف الصعيد العليا في ما عدا الوادي المذكور صخور قاحلة لا ماء فيها ولا نبات ولا يقع عليها المطر الاَّ نادرًا وكلها كلسيَّة (جيريَّة) حتى الدرجة الخامسة والعشرين من العرض حيث تبدل بسلسلتين من الجبال الرملية تقتربان تحت اصوان باربعين ميلاً حتى لا يبقى بينهما الاَّ الف قدم والظاهر انهما كانتا متصلتين فخرقهما النيل . وبالقرب من اصوان على ٢٤ درجة من العرض يبدل الصخر الرملي بالصخر الحبب (الغرانيت) . وفوق اصوان يرتفع مجرى النيل ١٦ قدمًا في فسحة ضيقة فيجري ماؤهُ سريعًا وهذا هو الجندل الاوَّل من جنادل النيل او شلالاتهِ . وارتفاع النيل في اصوان عن سطح البحر نحو ثلثمائة قدم فقط مع ان اصوان تبعد عن البحر خمس مئة ميل في خط مستقيم . ثم يزداد ارتفاعهُ رويدًا رويدًا حتى يبلغ ٢٩٢ قدمًا في وادي حلفا عند سفح الجندل الثاني و٦٥٩ عند الجندل الثالث و٧٤٥ عند الرابع و١٣١٢ قدمًا عند الخرطوم حيث يتصل النيل الابيض بالازرق

والنيل الابيض والازرق نهران كبيران جدًّا الاول منهما جارٍ من بحيرات اواسط افريقية

ومستنقعات السودان الكثيرة حيث تهطل الامطار الغزيرة في فصل الصيف فتفيض بها تلك البحيرات والمستنقعات . والثاني من بلاد الحبشة وفي بلاد الحبشة جبال شامخة تتراكم عليها الثلوج حتى اذا بلغت الشمس الانقلاب الصيفي اذابتها وجرى ذوبها الى النيل الازرق ولذلك يعلو النيل في برّ مصر ويفيض بحسب احوال الجو في بلاد السودان والاحباش . واقبال المواسم في برّ مصر يتوقّف على غزارة الامطار في اواسط افريقية

وطول النيل من البحيرة الكبيرة التي يصدر منها (وهي نيترا البرت) الى البحر المتوسط الفا ميل على خط مستقيم وارتفاع تلك البحيرة عن سطح البحر نحو ٣٥٠٠ قدم فيكون معدل تحدره نحو قدم واحدة في كل ميل هذا اذا لم تعتبر تعرجاته الكثيرة التي يزداد بها طوله فيقلّ تحدُّرهُ

وماء النيل ازرق اللون الى الخضرة قُبيل فيضانهِ واخضرارهُ مما يتولد في مستنقعات السودان من الطحلب ونحوهِ قُبيل هطول الامطار عليها . ثم يصير احمر عكرًا كما هو الآن . وعلى هذا العكر وما يرسب منهُ من الطمي او الابليز يتوقف خصب مصر وغناها بل ان وادي النيل كلهُ من اصوان الى البحر المتوسط قد تكوّن من هذا الطمي ومقدار ما يرسب منهُ الآن في العام نحو جزء من عشرين جزءًا من القيراط وسمك الرواسب بالقرب من القاهرة نحو ستين قدمًا فتكون قد رسبت في مدة اربعة عشر الفًا واربع مئة سنة وهذا ينطبق على تعديل هيرودوتس لو كان رسوبها يجري على معدّل واحد

وظن البعض ان نيل الاقدمين كان ارفع من نيلنا واغزر لسببين الاول ان ليبسيوس اكتشف فوق الجندل الثاني كتابات من عهد امنمهات الثالث من ملوك الدولة الثانية عشرة الذي كان قبل عصرنا بنحو اربعة آلاف سنة تحدد ارتفاع النيل في ذلك الزمان والحد المذكور ارفع من الحد الذي يبلغهُ الآن هناك باربع وعشرين قدمًا . والثاني ان بين الجندل الاول وجبل السلسلة رواسب فيها اصداف كثيرة مما يعيش في النيل وهي ارفع من الحد الذي يبلغهُ النيل الآن بنحو ثلاثين قدمًا . ولكن الارجح ان ذلك ليس لان النيل كان يرتفع بفيضانهِ اكثر مما يرتفع الآن بعشرين او ثلاثين قدمًا بل لانهُ يرى الصخور التي في مجراهُ لانهُ اذا يرى من الصخر ما سمكهُ قيراط واحد كل ثلث عشرة سنة بلغ هذا العمق في اقل من اربعة آلاف سنة

ثم ان الدكتور ادمس وجد بين اصوان ودر اطنافًا تعلو عن النيل عند فيضانهِ نحو مئة وعشرين قدمًا ووجد فيها اصدافًا ما يعيش في النيل الآن فلا شك في ان النيل كان يبلغ هذا الحد من الارتفاع او ان الارض تخصصت رويدًا رويدًا . وهنا ينتقل البحث من تاريخ مصر وجغرافيتها الى جيولوجيتها ولما كان تفصيل ذلك يتعذر فهمهُ على كثيرين من القراء نذكرهُ

مجملاً فنقول

ان الباحثين في جيولوجية مصر قد ترجح لهم ان البحر كان في قديم الزمان يمتد من الهند الى مراكش ويغمر كل بلاد مصر من اصوان الى البحر المتوسط . وعلى توالي الادهار رسبت فيه الرواسب الكلسية من حكاكة الاصداف فتكونت منها الصخور الكلسية القائمة الآن على جانبي وادي النيل . وفي اواخر الدور الطباشيري ارتفعت اطراف مصر العليا ثم ارتفعت مصر الوسطى في بداءة المدة المتوسطة (الميوسين) من الدور الثالث والسفلى في اواخرها اي ان بلاد مصر اخذت في الشخوص من تحت الماء من الجنوب الى الشمال وكان النيل يجري كل هذه المدة ويأكل الصخور التي في طريقه ويكوّن دلتا بعد دلتا حيث يأتي البحر ويجرف تراب الدلتا الاولى ويلقيه في الثانية ثم تراب الثانية ويلقيه في الثالثة وهلمّ جرًّا . وفي اواخر المدة المتوسطة (الميوسين) المذكورة بطل شخوص الارض فجعل النيل يطمر هذا الخليج الذي فيه الدلتا الحالية . فالنيل هو الذي حفر واديه وهو الذي طمره وقد كان موجودًا قبل ان وجد بقعة من برّ مصر . والشواهد على ذلك كلها كثيرة في الصخور الكلسية المشار اليها وفي الاشجار المتحجرة التي يرى منها كثيرٌ في اماكن مختلفة من مصر فان طول البعض من هذه الاشجار نحو ثلاثين قدمًا وقطرهُ من قدم الى قدمين وكلها جذوع عريّة من الاغصان والجذور واللحاء وليس بينها شجرة قائمة . وبناؤها الخشبي غير واضح دلالة على انها تحجرت بعد ان دب البلى فيها . وكثيرًا ما تظهر فيها آثار النطريات كغيرها من الاشجار البالية . والمرجح ان النيل جلبها من مصر العليا والسودان عندما كانت الدلتا خليجًا في المدة المتوسطة (كما يجلب نهر مسيسبي جذوع الاشجار الآن ويلقيها في خليج المكسيك) فلعبت بها المياه زمانًا طويلاً ثم ارتطمت بالرمال وانطمرت فيها فاستحال بناؤها الخشبي الى بناء حجري سليكي بالتبادل بين دقائقه ودقائق الرمل . وقسم كبير من الغاب المحجر شرقي الجبل المقطّم يعلو عن سطح البحر نحو الف قدم دلالة على انهُ تكوّن قبل شخوص الارض الذي حدث في المدة المتوسطة من الدور الثالث

هذا من قبيل اصل بلاد مصر واما المصريون القدماء فالحكم على اصلهم من باب علمي متعذر حتى الآن والمرجح انهم شعب قائم بنفسه ليس من الساميين ولا من الآريين ولا من التورانيين ويظن البعض انهم هم واهالي استراليا واهالي اميركا واواسط هندستان من اصل واحد . ويظهر من مباحث فجباري لك ان في قاع الدلتا شيئًا من آثار البشر واحدثها من عهد رعمسيس الثاني وهذا اذا صحّ يقطع بتقدم المصريين ولكن صحتهُ مطعون فيها والله اعلم